الحلقة السابعة والعشرون

(1) (قصر علي باشا.. آذار صباحا.. شهربان تمشط شعرها الأسود الطويل وتعقصه في جديلة ملفوفة خلف رأسها.. الوصيفة تلعب الكرة مع علي في الحديقة.. زائرة شقراء عند باب الحديقة تسأل ان كان هذا منزل على باشا.. يبدو من لهجتها أنها أجنبية بالرغم أنها تتكلم العربية.. تسألها الوصيفة عن إسمها.. تقول بأنها صديقة شهربان.. تهرع الوصيفة الى الداخل)

الوصيفة: (لشهربان) هناك زائرة أجنبية اللسان تقول بأنها صديقتك..

شهربان: أين هي؟

الوصيفة: تلعب الكرة مع علي..

شهربان: (تنظر من النافذة) انها هيلدا! (تهرع الى خارج القصر لاستقبالها.. تتعانقا بلهفة وحنين الشباب المليء بالذكريات.. تحمل تحت إبطها علبة ملفوفة بعناية)

هيلدا: نحن في الثاني عشر من آذار، وهذه لعلي في عيد ميلاده..

شهربان: أتذكرين عيد ميلاده وأنساه وأنا أمه؟

هيلدا: أنا أذكر كل شيء عنك وعن أولادك يا شهربان، بل عن أسرتك التي تركت في نفسي أكبر الأثر.. كنت أرغب في زيارتك في عطلة عيد الفصح من ذلك العام لأهنئك بمولد علي، لولا أنني شغلت في الخارجية بصفقة السلاح بيننا وبين تركيا التي جاء والدك ليبرمها مع وزير الدفاع عندنا.. وكنت أيضا راغبة في إهداء كتابي عن الطبخ الشرقي لوالدتك الكريمة رحمها الله، فاذا بي أسمع في الخارجية نبأ وفاتها.. (تتنهد شهربان)

شهربان: والله كبرت عشرة أعوام منذ وفاتها! كانت حاملة عبء أولادي جميعهم (تنادي عليا) تعال وانظر الهدية التي أتت بها خالة هيلدا! (يركض علي ويفتح العلبة فيشاهد فيها نموذجا مصغرا لقطار وسكة حديد)

هيلدا: انه نموذج مصغر عن القطار الذي تعهدت شركة ألمانية بمده من البوسفور حتى أنقرة.. ومموّله الذي حصل على الإمتياز ألفرد كارلا، صديق لأبي وهو الذي أهداه هذا النموذج! (تمد هيلدا السكة الدائرية للقطار بعد أن تثبت قطعها، وتركب مختلف قطع القطار، وتشغل الزمبرك فيسير القطار على السكة ويدور، ويلهب خيال الصغير فيصفق فرحا، وكلما توقف يعود الى شحنه بالزمبرك المرة تلو المرة

وهو في أشد الإبتهاج.. تقف هيلدا متأملة صورة علي باشا الزيتية، بحجمه الطبيعي تتصدر جدار الصالة) المرة الأخيرة التي رأيته فيها كانت في منزل والدتي، وكانت قد رتبت له موعدا مع وزير الدفاع عندها..

شهربان: كيف حال والدتك؟ والله اشتقت كثيرا لسماع صوتها!

هيلدا: (باكية!) أما علمت بموتها؟ ألم يخبرك والدك؟ من غير المعقول أنه يقوم بزيارات للسفارة ولا يسمع بموتها!

شهربان: أبدا! هل توفيت في هذه السن الصغيرة؟ متى كان هذا؟

هيلدا: في شتاء العام الماضي بعد عيد الميلاد بقليل!

شهربان: انه الزمن الذي توفي فيه والدي! (لنفسها) أتراه علم وأخفى الأمر عني؟

هيلدا: لقد نادته اليها!.. ألا تعلمين بالحب الكبير الذي كان والدك يكنه لوالدتي؟

شهربان: لا أبدا، كان معجبا بها وبصوتها الرائع، ولكنه كان كذلك، ينتشي لكل صوت رائع يسمعه أكان صاحبه امرأة أم رجلا!

هيلدا: انني أعرف بهذا منذ زرت ألمانيا برفقة زوجك الأمير مراد، وابن خالتك الأمير بهجت وزوجته الألمانية أنجة..

شهربان: (في تأمل) الناس أسرار.. لا تعرف البنت سر أبيها، ولا الأم سر ابنتها، ولا الزوجة زوجها، ولا الصديق صديقه..

شهربان: معنى هذا أنه كان يحبها منذ عهد بعيد، ولا أحد فينا يدري ما الذي يكنه قلبه!..

هيلدا: أبعد مما تظنين، ربما منذ رآها في ويمر، حين كنت أنا وأنت صبيتان صغيرتان.. لقد نما هذا الحب وأثمر.. ان لك أخا يا شهربان هو أكبر من ابنك عثمان بثلاثة أعوام!

شهربان: (وقد أذهلها الخبر وأفرحها) أي أنه في السابعة عشر من العمر.. ما اسمه؟

هيلدا: كونراد روبنشتاين..

شهربان: لماذا روبنشتاين؟ ألا يعرف بأن علي باشا والده؟

هيلدا: ليس بعد.. جاء معي بعد وفاة والدتي.. فعيّنه والدي معاونا له في السفارة..

شهربان: هل يعلم والدك أنه إبن علي باشا؟

هيلدا: لا، ان ما يعرفه أنه إبن ضابط هو إبن عم والدتي، قتل في الحرب دفاعا عن ألمانيا حين هاجمها الروس.. وهو يحمل كنية عائلة أمي روبنشتاين، ومن الأفضل أن يبقى على هذا الوهم..
شهربان: كونراد يجمع بين عائلتينا.. هو أخوك من أمك، وهو أخي من أبي.. هل ترين أنه من الأفضل أن يبقى على هذا الوهم بالنسبة لي؟
هيلدا: أوصتني أمي وهي على فراش الموت إثر نيمونيا حادة لم تمهلها غير ستة أيام، أن أخبره بمن يكون أبوه.. وهذا يعود اليك يا شهربان، فهل هذا يناسبك؟
شهربان: كيف أرفض هذه النعمة التي تهبني إياها السماء؟ أصبحت في شوق لأرى كونراد وأضمه وأقبله، انه من رائحة أبي الذي أحببته وفجعني موته لأنه كان لي الصديق الوحيد.. مسكين أبي كم كان يتعذب وهو يخفي سره بين جوانحه، ينظر في وجه كونراد ولا يستطيع القول أنه أبوه، ويضمه اليه ضمة الوالد لابنه الحبيب.. (هيلدا تنهض تريد الخروج)
هيلدا: والآن وقد اطمأن بالي على موقفك من كونراد، سأعلن له حقيقة مولده.. سيكون هو الآخر سعيدا أن تكون له أخت كشهربان تعوضه عن فقد أمه! وداعا..
شهربان: أنت في ضيافتي!
هيلدا: لا أستطيع المكوث.. لدي عمل في السفارة!
شهربان: تعالي عند المساء مع كونراد لتحضري عيد ميلاد علي..
هيلدا: سأفعل، ولكن أرى أن تكتمي أمره عن أهل زوجك، وحتى عن زوجك.. فالأحداث تتسارع في المنطقة وليست صالحة للعلاقات التركية والألمانية!
(2) (صيدا.. منزل الأسير.. فاطمة تشعر بتشنجات الرحم منذ العصر)

حنيفة: لعله مغص من الكبة التي أكلناها عند الغذاء.. سأحضر لك مغلي النعنع الجاف، فان زاد عليك الألم عند المساء أستدعي لك الداية أم سعيد قبل المغيب.. (تشرب فاطمة مغلي النعنع ولكن المغص لا يزول)

فاطمة: عجلي يا خالتي أم محمود.. تعاودني النوبات.. وأشعر بألم لا يطاق..

حنيفة: (ترتدي ملاءتها وتخرج.. فاطمة تتمشى في غرفتها جيئة وذهابا.. تخرج من خزانتها حقيبة المولود.. تقف أمام المرآة تمشط شعرها وتجدله حتى لا يربكها.. يعاودها الألم متسارعا فتتمدد على السرير.. تقوم في نوبة أخرى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال، تعاود المشي فلا تستريح، تأتيها النوبة وهي واقفة أشد مما هي متمددة.. تحاول التمدد والجلوس، وهي تعضّ على طرف اللحاف ولكن الألم لا يتوقف الاّ ليستمر(تصل الداية وأم محمود)

أم سعيد: (تفحصها) إطمئني ياابنتي كل شيء طبيعي.. رأس الجنين في باب الرحم.. هل الحمام ساخن؟

أم محمود: انها ليلة صعبة فاحتمليها.. لن تطول ولادتك ساعة أوساعتين لا أكثر وتنتهي آلامك.. الفلاحات عندنا يعملن في الحقول وحين تحسّ إحداهن آلام الوضع تنتحي تحت شجرة وتضع مولودها.. وتأتي جارتها وتقطع الحبل السري للجنين وتغطيه بورقة شجر طرية تضعها فوق السرة وتضغط عليها بحجر، ثم تلفها بشريط من قميصها، وتنزع منديل رأسها وتلف به الجنين.. إحمدي ربك أنك في المدينة، في منزلك، وعلى سريرك، وتأتي اليك داية مدربة رأى النور على يديها نصف أطفال صيدا.. هيا اكبسي وساعدينا على خروج الجنين.. وعضّي على ذراعي ان برّح بك الألم.. (تهدأ آلام فاطمة)

فاطمة: لا أستطيع أن أعضّ ذراعك يا خالة، لأن فضلك علي غمرني فهاتي يديك لأقبلهما!

حنيفة: (تمسح على رأسها) هيا يا حبيبتي.. ادفعي للشيخ ببنت ندعوها فريدة.. انك تشبهين فريدة التي كانت زينة دنيانا، فلعل الله يرزقنا بنتا تشبهك ويعوّضنا بها عنها، ويشفي جرحنا لفقدها.. فتكون في الغد بشارة للشيخ تسعد قلبه..(تعود الآلام متسارعة، متناقصة بين النوبة والأخرى فترة السكون) هيا! هيا! (تصرخ الداية)

الداية: ظهر الرأس هيا يا فاطمة، واعط كل عزمك في دفع الجنين (فاطمة تشد بكل ما أوتيت من عزم فينزلق منها الجنين، وتغمض عينيها وقد أحست بالراحة الكبرى بعد جهاد المخاض الصعب على المرأة التي تلد ولادة طبيعية. وتسمع وهي مغمضة العينين صوت

حنيفة تزغرد "انها بنت" وترفعها لتراها فاطمة، وهي تصرخ بكل قوتها واع واع..

(3) (شهربان تقرأ رسالة وصلتها لتوها من جلنار)

أختي العزيزة شهربان،

بمزيد الأسى والحزن أحمل اليك نبأ فجيعتي بوفاة والدتي، كانت في الفترة الأخيرة تعاني من قرحة في المعدة وتتوجع كثيرا، وترفض أن تجرى لها عملية.. وكان طبيب العائلة د. رأفت يعودها ويعطيها الأدوية التي تخفف من حموضة المعدة، والمهدئات ويقول لها أن علاجها لايكون تاما الاّ بالجراحة واستئصال القرحة، ولكنها كانت تخشى العملية.. فلم تنفعها الأدوية، وثقل عليها المرض وتوفيت منذ أسبوع..

يشغل بالي رغبة عثمان ومصطفى وسليمان الذين يلحّون في الإنضمام اليك بعد وفاة جدتهم، ولكنني أقنعتهم أن يتريثوا حتى نهاية العام الدراسي.. وانتقلت أنا وخالد الى المنزل لرعايتهم، فأليسّار لا تصلح لذلك، وقد أصبح عثمان ومصطفى في سني المراهقة، ولا يحسن أن يتركوا لوحدهم.. وعندما تنتهي السنة الدراسية ويأخذون نتائجهم، آتي أنا وخالد ونصطحبهم معنا الى لبنان، فخالد مشتاق لأهله، وأنا مشتاقة لأراك، وأعرف أحوالك بعد وفاة والدك رحمه الله، ومافعلته الحياة بك.. سيرتب لي خالد نقل راتب المرحوم مراد من والدتي اليك، يعينك في الغربة اذا نويت البقاء في لبنان، أو أبقيه مصمّدا معي اذا كنت تنوين العودة الى استنبول..

أختك المحبة جلنار

محمود: عسى خيرا ما وردتك من أنباء!

شهربان (تناوله الرسالة ليقرأها) اقرأها بنفسك! (لنفسها) الآن يظهر معدن الرجال..

محمود: ألست مسرورة لينضم أولادك اليك؟ مم تخشين يا شهربان؟ أتخافين أن يفتر حبي لك؟

شهربان: لست أخشى على أولادي منك، ولكنني أخشى من أولادي عليك.. هم لا يعلمون بزواجي منك، وأنا في خيالهم الأم التي عليها أن يكونوا حبها الوحيد بعد وفاة والدهم..

محمود: يجب أن يدركوا أن للكبار حاجات لا يمكن لهم أن يحسوا بها الآن في أعمارهم الصغيرة.. ان أمامهم مثلا ساطعا.. خالد الذي بقي وفيا لذكرى فريدة عشرة أعوام، تزوج أخيرا جلنار.. لو كان خالد صادف جلنار منذ زمن بعيد لما بقي دون زواج.. هذه طبيعة الإنسان، لا يمكن له أن يعيش على الأحلام والذكريات أكان رجلا أو امرأة.. أعطيتهم ما يكفي من الحنان في طفولتهم!

شهربان: نحن الأمهات التركيات لا نربّي أبناءنا على الحنان بل الإحترام، حتى لا يفقدوا صفات الرجال.. أنا لم أكن أقبّلهم الاّ وهم نيام، بالرغم من كل شوقي لأفعل ذلك.. هكذا علمني والدي..

محمود: أنا لا أوافقك على هذه التربية.. لقد أشبعتنا أمي في طفولتنا ضما وتقبيلا وحنانا، وما أفقدنا هذا حيويتنا ولا رجولتنا ولا انسانيتنا..

شهربان: ألن تنزعج يا محمود لو أحاط بك أربعة من أبنائي يغارون منك علي؟ الأبناء يغارون حتى من والدهم الذي أنجبهم فكيف بالغريب؟

محمود: أنا كوالدي أحب الأسرة الكبيرة، وأعرف كيف أعاملها بالحسنى مثلما كان يعاملنا أبي..

شهربان: لا تقل بأنك ستفعل بهم ما كان يفعله أبوك بكم وأنتم صغار حين يزوره ضيف ثقيل.. يدخل عليكم ويسألكم ان أنجزتم فروضكم ويضرب المقصر فيكم بالسوط، فيتعالى صياحكم وبكاؤكم حتى يهرب الضيف الثقيل!

محمود: (ضاحكا) ليس سوطا، بل مسطرة.. كان يحمل عبء تدريسنا، الى عبء معيشتنا، ولا يجد الوقت لإرواء حاجاته الثقافية والأدبية! ولكن من أخبرك بهذا؟

شهربان: انها فريدة يرحمها الله.. كم كنت أحبها وأتعسني فقدها، بل حين رأيتك لأول وهلة تراءى لي أنني أشاهد وجه فريدة بملامح رجل..

محمود: الحياة لها وسائلها لتبرئ جروحنا، وتعوّضنا عمن نحب.. بل انني أحيانا أرى في ذهنية المؤمنين بتناسخ الأرواح وجهة نظر.. لعل حبنا الصاعق من الوهلة الأولى يحمل في لا وعينا الرغبة في تكرار انسان نحبه وفقدناه.. ووالدي نفسه حين تزوج فاطمة وعمره ثلاثة أضعاف عمرها كان في لاوعيه الرغبة في تكرار فريدة وإعادتها الى الحياة بطفلة تشبهها.. لقد تعذب كثيرا لفقدها فأبرأ جراحه أن عوّضه الله بفريدة الصغيرة التي ملأت عليه حياته..

شهربان: وأنت ما الذي رأيت فيّ لتكرره؟

محمود: صورة شهربان الصغيرة.. قلت لنفسي " أليس جنونا أن يفنى هذا النموذج البشري الرائع دون أن يتكرر بدزينة من البنات؟

* * *